مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد:26 عدد:4 (رت 66) السنة:2022

إتيقا الفهم عند إدغار موران

The ethics of understanding by Edgar Morin

عتيقة بلعقروز[1]
جامعة محمّد لمين دبّاغين، سطيف 02
atikabelagrouz20@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/01/22 القبول 2022/01/20 النشر على الخط 2022/05/10
Received 22/01/2021 Accepted 20/01/2022 Published online 10/05/2022

ملخص:

يقترحُ إدغار موران في سبيل تعليم التّفاهُم بين البشر أنْ أُمارسَ أوّلًا اعترافًا بالآخر لأنّهُ مرآةٌ ذاتي من طريق تفعيل آلية الإسقاط والمحاكاة والتّماهي مع بعض بحُكمِ تجربةٍ مُشابهة حدثت معي ومعهُ، وإنّ الفهم في هذهِ الحالة لَيُصبحُ بحقٍّ معرفةً تشاركيّة، عاطفيّة وذاتيّة لمواقفِ الآخرين ومشاعرهم، أحزانهم وأفراحهِم...،في إطار مُعاوَة إصلاح العقليات والعلاقات الإنسانيّة. ولوْ أنَّ هذا الإصلاح في واقعِ الأمر ينهضُ على جملةٍ من الشُّروط والَّتي بدوْرها تهدفُ إلى إقامة الفهم الإنساني. وثانيًا، في السّعي إلى توسيع نطاق الفهم من خلال المواجهة بين الثّقافات كرمز للانفتاح وشرط للعالميّة، وكدافع إنساني لتأكيد قيم التّنوُّع والاحترام والتّواصُل والتّسامح المتبادَل والتّعايُش مع الآخر. وإنَّ جميع هذهِ القيم تكون مُتأتِّيَةً فقط بالحفاظ على هويّتنا الثّقافيّة دون أنْ نُعاني من خطر فقدانها أو تشويهها، بما أنَّ كلّ ثقافة إلى جانب خصائصها الأصيلة، هي مجموعة مُعقّدة ومنسوجة من ثقافاتٍ أخرى. وباعتماد الطَّريقة التَّحليليَّة المقارنة للموضوع، تمَّ الوُصول إلى نتيجتيْنِ أساسيَّيْنِ وهُما: في أنَّ الفهم يقتضي تأسيس الاعتراف بالهويَّات الفرديَّة والجماعيَّة، وبأنَّ هذهِ الهويَّات قولًا واحدًا تتشكَّل سوى بالاعتراف، وبأنَّ الرِّهان الأساسي للفهم يكمُنُ أيضًا في الحُلم بمستقبلٍ وبنهايةٍ سعيدة للبشريَّة، ومن هنا فقط يمكن أنْ نأمل في تصالُح الإنسان مع ذاته، ومع الآخر، ومع العالم بكلّ ما فيه من ثراءٍ وتعقيد.

الكلمات المفتاحية: إدغار موران، الفهم، اللّافهم، الاعتراف، عولمة الفهم.

Abstract:

In order to teach understanding among human beings, Edgar Morin suggests that I practice first recognizing the other because it is a self-mirror from the way of activating the mechanism of projection and simulation and to match with some by virtue of a similar experience that happened with me and with him, and that understanding in this case will become a right of sharing, emotional and self-emotional knowledge of the attitudes and feelings of others. Their suffering and their well-being... in the context of the allowance for the reform of attitudes and human relations. If this reform actually fulfills a set of conditions, which in turn are aimed at building human understanding. Second, it seeks to broaden understanding through intercultural confrontation as a symbol of openness and a condition of universality, and as a human motive for affirming the values of diversity, respect, communication, mutual tolerance, and coexistence. All these values are derived solely from the preservation of our cultural identity without the risk of loss or deformation, since each culture, together with its original characteristics, is a complex and woven group of other cultures. By adopting the comparative analytical method of the topic, two basic outcomes have been reached: Understanding requires that recognition of individual and collective identities be established, that these identities are one word formed solely by recognition, that the fundamental bet of understanding also lies in dream of a future and a happy ending for humanity, and that only here can we hope that man will reconcile himself, with the other, and with the world with all its richness and complexity.

Keywords: Edgar Morin, Understanding, No Understanding, Recognition, Globalization of Understanding.

[1]-المؤلّف المرسل: عتيقة بلعقروز البريد الإلكتروني: atikabelagrouz20@gmail.com

1. مقدّمة:

كلُّنا من آدم، وإذًا ليس الفردُ لوَحدهِ، لأنّهُ وُجودٌ معَ، كيانٌ مُشارك. ولكنْ بين المخلوقات الآدميّة يدورُ صراعٌ مُستميت بين الفردِ ونفسه، بين الفردِ والفرد، بين الفردِ وعالمِه، بين قوَى الخير وقوى الشّر. وهذا الصّراعُ في عمومهِ كما أقرَّ برتراند راسل B. Russel إمّا أنْ يدومَ طويلًا في حالاتٍ يتطلّبُ فيها أنْ يكونَ عكسَ ذلكَ تمامًا. إنّهُ حقًّا مُتوقّفٌ على ضروبِ الخلافِ النّاشئة، على النّيات والمقاصد والغايات. باختصارٍ، لا يمكنُ الجزمُ بأنَّ الصّراع سينتهي، لأنّهُ دائمًا أمامنا وليسَ خلفنا، ذالكُم حُكمُ الطّبيعة في إقامةِ أصُولنا وليس بمُستطاعنا أنْ نختار أو نُغيِّرَ شيئًا من هذهِ الحقيقة.

علينا ببساطةٍ شديدة أنْ نقبَل بأنّهُ من قلبِ الصّراع تتكّثفُ رمزياتُ الهويّةِ وتتخلّق، تتجاذبُ وتتنافر، تتداخلُ وتتخارَج، تنفصلُ وتتّصل، تتصارعُ وتتصالح، وفي الواقع كانت لعبةُ الصّراع منذُ إغواءِ حوّاء لآدم هي لعبةُ الذّات في حضورها وغيابها، حركاتها وسكناتها، حياتُها وموتُها، سلامها وأمنها، آمالُها وآلامُها، في غموضِها ووُضوحها، مادامتِ الذَاتُ تظهرُ سوى لِتملأَ الوُجود ظُهورًا سحريًّا، أصيلًا ونقيًّا تمارسُ بهِ أثرَ سديمِها في الوُجود بلا مقاومةٍ ولا مواجهة.

ومهمَا كانَ هذا الظُّهورُ في واقعِ الأمرِ مرغوبًا فيهِ، فإنَّ ذاتي كما نصفُ ذلكَ بدقّةٍ، هي الحمَاسُ والميُول والرّغبات والطُّموح والأفعال والإرادة، وإذا ما شئنا أنْ نقتبس تلكُمُ العبارة الجليلة لسارتر نقول:" تعاليُ الأنا موجود La transcendance de l'ego " [1]، ولكنَّها أيضًا– أيْ الذَّات – ما يرى نفسهُ ويُعبِّرُ عنها في الآخر، ويبدُو أنَّ وصفَ سارتر " الآخر هُوَ جحيم " يتقادمُ ها هُنا حدَّ التَّهالُكِ إلى ما لا نهايةٍ، رؤيةً وتعبيرًا يصلُ إلى مُستوًى لا تقومُ فيهِ الهويَّة إلّا في الاختلاف مع الآخر، ولهذا فقد كان إيمانويل ليفيناس E. Lévinas على صوابٍ حينما كتبَ قائلًا: الآخر هُوَ" ما لا يمكنُ أنْ أكونَهُ أنا "[2]. بالأحرى، إنَّ الذَّات ما ليسَت هيَ مع أوَّل اختفاءٍ يكونُ فيهِ الآخر مُغتربًا، غريبًا، بعيدًا ومعزولًا، وإنْ كانت الغُربة كما قال لفيناس ليسَت شيئًا آخر سوى" استغراقُ الأنا في الحدّ الَّذي تستشرفُ ذاتها فيهِ"[3].

ولكنْ، أليَسَ الاختفاءُ المذكورُ في جوهره هُوَ ما يُشكِّلُ واقعة كوْنِنا هنا في العالم؟، سوى لأنَّهُ يعبِّرُ إمَّا عن علاقةٍ عابرةٍ بلا أثرٍ وفعل أو عن علاقةٍ دائمة، مُؤثِّرة، حقيقيَّة وفاعلة. وهنا فقط يمكنُ لعبارةِ موريس بلانشو M. Blanchot أنْ تتَّخذَ معناها:" الأنا لا يتلاشى، لأنّهُ غيرُ مُستقلٍّ بذاتهِ، ولذلكَ لا يكونُ أنَا إلّا بصفتهِ غيرَ منغلقٍ بذاتهِ، كأنّهُ لا يزالُ مفقودًا إذًا "[1]. وبالتّالي فإنّ علاقات الحبّ والصّداقة والتّعاون والكُره... تصبحُ مفهومَةً أكثر، لأنّها تمثِّلُ قطعًا امتدادًا قويًّا وحقيقيًّا لعالم الذّات الّذي يُعَدُّ بدوْرِهِ أيضًا منذُ اللّحظة الّتي تمكّنَ فيها إدغار موران E. Morin [2] من مَدِّ جسور التّواصل بين الأنا والآخر، من أنْ يرى في الآخر، شبيهي وشبيهُكَ عنصرًا من بينِ العناصرِ الإيجابيَّة المكوِّنَة لوُجودي الاجتماعيّ والثّقافيّ والتَّاريخيّ.

وبالنَّتيجة، فإنَّ البُعدَ الصِّراعي الَّذي يتخلَّلُ العلاقات بين البشر كما اسْتَبقنا الذِّكر، هُوَ ما يُمكنُ أنْ نُطلقَ عليهِ هنا اسمَ " الاعتراف "، بدايةً بالطَّرح الّذي نجح هيجل Hegel في تمريرهِ عبر جدليَّة السَّيِّد والعبد، لا بوصفها تعبيرًا عن الفُرُوق الفرديَّة بيْنهما، وإنَّما لأنَّ هذهِ الفُرُوق

---

(1) أنظر العنوان من كتاب: جان بول سارتر، تعالي الأنا موجود، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 2005.

(2) إيمانويل ليفيناس، الزّمان والآخر، معابر للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط1، 2014، ص 93.

(3) المرجع نفسه، ص 85.

(1) مويس بلانشو، الفاجعة، دار توبقال للنّشر، المغرب، ط1، 2018، ص 107.

(2) إدغار موران (1921/ –)، فيلسوف ومفكِّر وعالِم اجتماع فرنسي، من أهمّ أعماله: المنهج في ست أجزاء، الفكر والمستقبل" مدخل إلى الفكر المركّب"، عنف العالم، ثقافة أوروبا وبربريّتُها، نجوم السّينما....

هي ما يُشكِّلُ الهويَّة الذَّاتيَّة، ويُفضي في النِّهاية إلى تحقيق مَطلَب الاعتراف في سياق عمليَّة عكسيَّة وعلى أساس هيمنة مُتبادلة للأدوار بين الطَّرفيْن(سيِّد، عبد/ عبد، سيِّد). هذا إذا ما أضفنا إليهِ فلسفة أكسل هونيث A. Honneth في عملهِ الشَّهير" الصّراع من أجل الاعتراف "، ومنْ بعدهِ ما طرحتهُ الأعمال اللَّاحقة للفيلسوف الكندي تشارلز تايلور C. Taylor، نجد منها كتاب" سياسة الاعتراف The Politics of Recognition"، ومجموعة أخرى من الكُتَّاب. ولوْ أنَّ العمل الرَّئيس من بيْنِ هذهِ جميعًا هُوَ ذلك الَّذي حاولَ فيهِ هونيث أنْ ينتقلَ من مفهوم الصِّراع بمعناه الضَّيق كما تداولتهُ الكتابات التَّقليديَّة، منها ما عرضَهُ عالِم البيولوجيا المعروف تشارلز داروين C. Darwin في مُؤلَّفه" أصل الأنواع "، والَّذي يُعتبر فيهِ الصّراع مجرَّد مفهوم وموقف مؤقَّت يعرض لسيرورة بقاء النَّوع وحياتهِ لا أكثر ولا أقلّ، إلى الصِّراع الَّذي غيَّرَ من صورة الاعتراف، بإعادة تشكيلهِ عبر مفاهيم المرئي واللَامرئي.

وكيْما لا نغوصَ كثيرًا في تضخيم شأنْ الذَّات إزاءَ الآخر، فإنَّهُ في عرضنا هذا إذًا، لا يمكنُ أنْ نتجاهل أبدًا تلك الفكرة المتعلّقة أساسًا بمسألة سعادة الجنس البشريّ، وطُرُقِ تحصيلها، وأمَّا حالُ هذهِ السَّعادة Happiness اليوم فإنَّهُ لا يُبشِّرُ بخيرٍ عظيم، والّتي بدورها ستبقى مفتوحة على أسئلةٍ كثيرة لا نهائيّة، من ذلكَ أسئلةُ الوُجود، والحياة والمصير ... حيثُ " الفهم " عند إدغار موران، يتموْقع على رأس هذهِ الأسئلة جميعًا، باعتبارهِ– أيْ الفهم – الأصلَ الأوَّل في سعادة البشر، السّعادة الكونيَّة أو لنَقُل الكلِّيَّة، والَّتي تحمل في مدلولها الثَّاني معنى" السَّعادة الذَّاتيَّة/ الفرديَّة ". فمِنْ أجلِ إعطاءٍ مصداقيَّةٍ لتعبيرنا " السَّعادة الكونيّة/ الكلِّيَّة " أو على الأقل لجعلهِ موضوعيًّا أكثر، يكفينا هُنا أنْ يُركِّز كلّ شخصٍ فينا على فهمِ ذاتهِ، لتكوين فكرة واضحة بسيطة عن مصدرِ سعادتهِ، على معرفة الأسباب والصّفات الَّتي تؤدِّي بنا إلى الحكم عمَّا إذا كانَ الآخرون سُعداء أيضًا، من ذلك انفعالاتُنا وعواطفُنا وتعبيرات وُجوهِنا...، ولَرُبَّما شيءٌ من قَبيلِ هذا الكلام الَّذي أسرفنا فيه موْجودٌ فعلًا، كما اعتقدَ بذلكَ إدوَردُو زامز وهذا ما دفعَ بهِ إلى القول:" ويُعَدُّ المرءُ مُدركًا لمفهوم السَّعادة حين يكونُ على درايةٍ بالظُّروف الَّتي يستطيعُ فيها القول: إنَّهُ يشعرُ بالسَّعادة، أنَّ شخصًا آخر يشعرُ بالسَّعادة. ويوفِّرُ نمط المعرفة الضَّروري للحُكم الصَّحيح على شعور الفرد بالسَّعادة أو شعور الآخرين بها أكبر قدر من المعلومات المرتبطة بالسَّعادة "[1].

ومِنْ ثَمَّ فإنَّ سعادتي لذاتي من طريق وُجود الآخرين في حياتي، باعتبارهِ نمطًا من أنماط المعرفة الضَّرورية أو المعيار الَّذي بهِ يمكن أنْ نحكُم على مدى سعادة أو شقاء شخص ما في هذا العالم، بإمكانيَّة تحصيل وزيادة فُرَص هذهِ السَّعادة، أو حتَّى التَّقليل من أثر عدم الشُّعور بها. ولوْ أنَّ أسباب السَّعادة اتِّفاقًا عامًّا واحدًا لا تنحصر في وُجود الأشخاص، فإنَّها بذلكَ تتعدَّدُ وتختلف، فمنهُم من لا يجعلُها في المال، ويجعلُها في الشُّهرة، ولا هيَ في الصِّحة ولكنَّها في بلوغ الكمال كما عند أفلاطون، وإنَّما هي أيضًا في الفضيلة والأخلاق كما عند أرسطو وفي المنفعة واللَّذَّة كما عند جيرمي بينتام.

ويبدُو أنّ إدغار موران في هذهِ الحالة، بإمكانهِ أنْ يُجيبنَا على أسئلةٍ كثيرة لا تزالُ عالقةً في الأذهان، فيما يخصُّ سعادة الأفراد بالنِّسبة لعلاقتهم مع الآخرين، حدود هذهِ العلاقة وطبيعتُها، بدايتُها ونهايتُها،– وإنْ كان إدغار موران كما لاحظنا من خلال الانتقال بين مُختلف كتاباتهِ لم يُخصِّص بحثًا مُستقلًّا يعرضُ فيه مفهومهُ عنِ السَّعادة والموقف منها – لتحقيق شرط الفهم والتَّواصل والتَّطابق الذَّاتي مع الآخر، هذا الأخير– التَّطابُق – لا بوصفهِ حالة وجدانيَّة نفسيَّة فحسب بل كجُزءٍ أساسيّ وكشكل من أشكال الاعتراف. وثانيًّا، حولَ إمكانيَّة رسم مسار لسعادتنا بالفهمِ دائمًا، واضح المعالم ومُحدَّد الأهداف، وفي الوقتِ نفسهِ قابل للاستمرار، وقابل كذلك لأنْ ننسجم معهُ، ونستعيد فيه ذواتنا الأصيلة ونخلع عنها ما قد يؤدِّي إلى تشويه الإنسانيَّة فينا. هذا المسار من حيثُ طبيعتهِ عليهِ أنْ يستوفي شروط الوحدة

(1) إدوردُو زامز، قيمة الوجه في إدراك سعادة الآخرين ومعرفتها، ضِمنَ كتاب تحت إشراف: ليزا بورتولُوتي، الفلسفة والسّعادة، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، ط1، 2013، ص.ص 224،225.

مع الآخرين، تلك الّتي– بالنّسبة لإدغار موران – تعمل على بناء وتنظيم الفهم، وتأتي إمّا من طريق ممارسة فكريّة أفهم بها سلوكاتي الذّاتيّة، أو باستبطان داخلي لأفعالي يستوْجب منّي تصحيحها، دون مُجاوزة فكرة الطّابع المركّب للإنسان، أو باستظهار تعاطفي ذاتي مع الآخر يميلُ من ثَمَّ إلى التّسامح معهُ، ما يعني أنَّ تحقيق الوِحدة كما زعمَ فروم E. Fromm هي ما" تسمح للمرء أنْ يضعَ ذاتهُ في علاقة مع الآخرين، أنْ يشعر بالاتِّحاد مع الآخرين، بدون تقييد الشُّعور بالنَّزاهة والاستقلال" [2].

وباعتبار الفهم فوق كلّ شيء، غيرُ منفصلٍ عن الاختلاف الثّقافي بين الشُّعوب، فإنَّ إدغار موران لا ينسى أنْ يُحيطنَا علمًا بأنَّ من شأنِ الثَّقافات أنْ تتصارعَ فيما بيْنها، وبأنَّ المجتمعات في سبيل تحقيق الهويَّة الثَّقافيَّة والانسجام مع باقي الثَّقافات لا يمكن أنْ تكون من دون صراع. وإنَّ هذا الصِّراع في جوهرهِ إذا ما قُورِنَ بالصّراع بين فردَيْن، فإنَّهُ يتَّخذَ معنى الممارسات والأفعال والطَّرائق والأدوات والوسائل الّتي بها تُستَهلَكُ كلُّ ثقافةٍ وتختفي. ولكنْ، على جانبٍ آخر، فإنَّ على المجتمعات والثَّقافات أنْ تُلغي الصِّراع وتُزيلَهُ من أجل تدبير الاعتراف وإقامة الفهم بيْنها، بالبحث عن طُرُق جديدة للتَّعايُش بمحبّة وسلام، ونحنُ نعتقد كما اعتقدَ بذلكَ فروم" أنَّ المرء يستطيع ويجب أنْ يأمل بالمجتمع الإنسانيّ الّذي يُعزِّز مقدرة الإنسان على حبّ أخيه الإنسان"[1].

تساؤلات الدّراسة:

مثلَ أيِّ بحثٍ لهُ أهمّيّة يخصُّ سؤال الفهم بين البشر، فإنَّ هناك مجموعة من الأسئلة تتحدّى اهتماماتنا، فإنَّ السّؤال الأوّل يتعلّق بأساس الفهم الّذي هُو الاعتراف، والثّاني يهتم بالفهم من ناحية الانتشار القويّ لوسائل التّواصل الاجتماعيّ، وبآليات وشروط تفعيلهِ بين البشر، انطلاقًا من رؤية تؤمن بضرورة إصلاح جذري للذّهنيَّات وعادات التّفكير السّلبيّة والّتي كثيرًا ما تقفُ في حالاتٍ عديدة كمانعٍ يحُول بين فهم أنفسنا وفهم الآخرين بشكلٍ صحيح. أمّا الأخير، فإنّهُ يرتكز على إثارة فكرة أخرى تتزامن مع دخول عصر الكوكبة، والّذي يطرح إمكانيّة القابليّة للتّواصل والفهم بين ثقافات العالم.

وفي هذا السّياق فإنَّ كلّ سؤال من بين الأسئلة المطروحة يبدُو أكثر أهمّيّة من الآخر، نذكُرُها تواليًا:

- ✓ كيف يمكن أنْ ننفذ إلى فهم الذّات من عُمق فهم الآخر؟، وهل يكفي أنْ نكتسب أجوبة دائمة، غير مُضلّلة، وغير خادعة عن أنفسنا إذا ما بقيَ هذا الآخر في كلّ مرّةٍ أسيرَ اعترافي؟.بعبارةٍ أخرى، هل يضمنُ الاعتراف بالآخر اعترافًا حقيقيًّا بالذّات يكمُنُ بالأحرى في مدّ جسور التّماهي بيْنهُما بالقدرة على تحقيق تفاعُل شعوريّ داخليّ مع مواقف الآخرين؟.
- ✓ هل يمكن أنْ نصل إلى فهم حقيقيّ بين البشر، في ظلّ ما يفيضُ علينا بهِ عصرُ التّكنولوجيا من وسائل اتّصال؟.وما هي الشُّروط الممكنة الّتي يمكن أنْ تؤدّي بالفرد إلى ممارسة حقيقيَّة للفهم؟.
- ✓ وهل يمكن للثّقافات اليوم أن تتعايَش فيما بيْنها، بأنْ تضعَ حدًّا لمشاكل سوء الفهم بين الشّعوب بنسيَان الماضي ومُقاومة الحاضر والثّقة في المستقبل، في أن تدفع بنا العولمة إلى إقامة اتّصال مباشر بين ثقافات الشّرق وثقافات الغرب في إطار تعميم المبدأ القائل بأنّهُ لا وُجود لثقافات خالصة، مُنغلقة، لأنّ جميع الثّقافات كما في العبارة الشّهيرة لتودوروف إمّا هجينة أو خلاسيّة؟.

فرضيات البحث: يقومُ بحثنا الموسُوم ب" إتيقا الاعتراف عند إدغار موران " على الفرضيّات الآتية:

1: الفهم عند إدغار موران قائم في الاعتراف على أساس تشارُك عاطفي من / مع الآخر.

2: لا تقنيّة من بين تقنيّات التّواصل الحديث، تحملُ في ذاتها خاصّية الفهم.

(2) إريك فروم، كينونة الإنسان، دار الحوار، اللّاذقيّة، سوريا، ط1، 2013، ص 113.

(1) إريك فروم، كينونة الإنسان، مرجع سابق، ص 115.

3: هناك عدَّة شروط لتأسيس الفهم الإنسانيّ وبنائه.

4: في أنَّ تأسيس الفهم يقتضي وُجود الاختلاف الثَّقافي بين الشّعوب.

منهجيَّة البحث: في بحثنا هذا حاولنا الاستفادة قدرَ الإمكان من مُجمَل ما كتبهُ إدغار موران فيما يتعلَّق بإتيقا الفهم مفهومها وعناصرها، وانطلاقًا من هذهِ النُّقطة قُمنا ببسط تلك الأفكار والآراء الَّتي لها علاقة مُباشرة بموضوع هذا البحث، عرضًا وتحليلًا ومناقشةً، وإذا ما أضفنا إلى جانب اعتمادنا على الطَّريقة التَّحليليَّة للموضوع، فإنَّ هناك الطَّريقة المقارنة الَّتي ظهرت في بعضٍ من مواضع هذا البحث، وبيْنما تكون الغاية من التَّحليل هي عرض الأفكار والتَّركيب بيْنها، فإنَّ الغرض من المقارنة هُوَ بيَان مناطق الضَّعف والقوَّة فيما عزَمَ موران على البَتِّ فيه.

أهمّية هذا البحث: تظهر أهمِّيَّة البحث ليس فقط في تحديد أسئلة التَّواصل والفهم، وعلينا في هذا المقام من أنْ نُنوِه بانَّ هذهِ الأسئلة لا تنفكُ البتَّة عن المعادة والظُّهور، بل في كونهِ يسعى إلى محاولة تجاوز جميع الأسئلة الّتي تخصُّ علاقة الإنسان بالإنسان لا كما عرضت لها الفلسفات السَّابقة لإدغار موران كما هُوَ الشَّأن مثلًا بالنِّسبة ليورغن هابرماس أو حتَّى ما أفاضَ بهِ علينا فلاسفة غيرُهُ في مجال فلسفات التَّواصل الإنسانيّ، وبيْنما يحاولُ موران اسْتكناه ثيْمَة الفهم، فإنَّ الرِّهان الأساسي لهذا التَّجديد والتَّجاوُز لا يرتبط بتدجين السُّلطة وترويضها، أو حتَّى تسْييس الإنسان بجعلهِ فاعِلًا سياسيًّا لبناء المجال العامّ من أجل تحقيق تفاهُم عامّ/ إجماع عقلاني حولَ الصَّالح العامّ في المجتمعات الدِّيمقراطيَّة(هابرماس). وإنَّما الفهم، فهُوَ الكلمة المعرَّفة– إنْ صحَّ تعبيرُنا – بالتَّربية الذَّاتيَّة/ الثَّقافيَّة لإنسان ما بعد الفضاءات العامَّة، بدايةً من مُماثلَة بملامح عاطفيَّة على ما أنا/ أنتَ عليه، أو بعناصر ثقافيَّة قارَّة ومشتركة أو غير مشتركة في قلب كلّ ثقافة، قادرة على رسم ملامح الهويَّات الثَّقافيَّة، وقابلة لِأنْ تتموْضع وتنشُط في ثقافات أخرى.

أهداف البحث: من خلال هذا البحث نُحاول التَّأكيد على مجموعة من الأهداف، نذكر منها على سبيل المثال:

- ✓ التّعرُّف على موضوعَة الفهم، مفهومها، شروطُها، أهمِّيّتها ودوْرُها في المجتمع، في مصادرها المعرفيّة الأولى عند إدغار موران.
- ✓ إبراز أهمّيّة مدى حضور الفهم في حياتنا، كمُقوِّم وعامِل أساسي لتماسُك العلاقات الإنسانيّة، وبأنَّ كلّ علاقة إنسانيّة مهْما كانت قويَّة بين الأفراد قد تنكسر، بأنْ تعرف في لحظة من اللَّحظات حالات ضُعف وتوتُّر. هذهِ العلاقة على أهمِّيَّتها قد تُولِّدُ معها أحيانًا كثيرة شُعورًا غيرَ مسبوق بالقهر والظُّلم والإذلال والكآبة.
- ✓ التَّأكيد على ضرورة تجاوُز مشاكل سوء الفهم، وبأنَّ الفهم هُوَ في الوقت ذاته عبارة عن عمليَّة بناء مُستمرة، وبأنَّهُ حركة دائبَة نحوَ المستقبل، ما يعني أنَّ هناك دائمًا إمكانيَّات جديدة ومُختلفة بواسطتها نعمل على إثراء وتطعيم العلاقات بيْننا وإعطائها روحًا مُغايِرة عمَّا كانت عليه.
- ✓ التّركيز على أهمّيّة ترسيخ قيم الفهم والتّواصل بين مُختلف ثقافات العالم، من خلال التَّأكيد على تعدُّد مظاهر الاختلاف والتَّنوُّع الثَّقافي لا باعتبارِهِ علامة مرضيَّة تدُل على نُقص الطَّبيعة البشريّة، وإنَّما كحالة طبيعيَّة تمُر بها حتَّى الثَّقافة الواحدة ولأنَّ جميع الثَّقافات الإنسانيَّة بدأت هكذا مُختلفة ولازالَت كذلك، وبأنَّ كلّ ثقافة أيضًا قادرة على تحقيق إرادة الإنسان القويَّةِ في التَّعارُف، ونقل تجارُب الشُّعوب الأخرى وخبراتها.

هيكلة البحث: وحتّى نتمكّن من الإجابة عن جملة التّساؤلات المطروحة سابقًا قُمنا بتقسيمِ بحثنا هذا إلى العناصر الثَّلاث الآتية:

- ❖ مساراتُ الاعتراف، من الذّات إلى الآخر.
- ❖ من عصر التّكنولوجيا، عصرُ التّدمير الخلّاق للفهم إلى الشّروط الفريدة للفهم.
- ❖ في عولمةِ الفهم، أيُّ مستقبل للثّقافات؟.

2. مساراتُ الاعتراف، من الذَّات إلى الآخر

وإنّ الفهم عند إدغار موران يصبحُ هُوَ نفسهُ اعترافًا، اعترافًا بالآخرِ حدَّ التّطابُق، في تَماهٍ ذاتٍ بذات، كأنَّنا شخصٌ واحد، كما في العبارة الشّهيرة " أنا – أنتَ I and Thou " [1] لمارتن بوبر M. Buber، وهذا ما يقودُنا إلى التّعامُل بطريقةٍ مُماثلة مع أفعال وأقوال الآخرين، وهذا ما نجدُهُ مُتضمَّنًا مثلًا في حالة البكاء عند الطّفل الصّغير على أساس الاعتراف بالتّجربة ذاتها الّتي مررنا بها في طفولتنا، " إنّنا لا ندركُ الغير إدراكًا موضوعيًّا فقط، بل إنّنا ندركهُ كذلك كذاتٍ أخرى نتطابقُ معها أو نجعلها متطابقةً معنا، إنّهُ أنَا آخر، وقد أصبحَ غيْرًا (ذُو أنَا مُستقلّة)"[2]. وإنّنا إذًا نستخلصُ الاعترافَ بالتّطابُق من حدّةِ اللّاتفاهُم المَوْجود في علاقاتنا الحميميّة مع الأفراد في مجرى الحياة اليومي. وإنَّ اللّافهم بإصرارِ إدغار موران هُو المشكلة الحقيقيّة الأشدُّ تأثيرًا على حياتنا :" لقد غدَا مُشكلُ الفهمِ مُشكلًا أساسيًّا بالنّسبة للنّاس، وبهذا الصَّددِ يمكنُ القول: من الواجب أنْ يكونَ هذا المشكلُ أحد غايات التّربية"[3].

تُجادلُ جوديث بتلر J. Butler في كتابها الذَّات تصفُ ذاتها، نظرًا لأنَّ الاعتراف المطلوب عند موران هُو عبارة عن وضعيّة مُبتكرة أو لِنقُل مُتخيَّلة– تفاديًا لإحراجات اللّغة –، ومُتكرّرة بشكلٍ لا نهائي، ويُمكنُ في الوقتِ نفسهِ أنْ تُثار في ظلّهِ تلك المفاهيم المتعلّقة بفلسفة الأخلاق (كالشّفقة على الصّغير، والإحسان إلى الفقير، العدل، الخير، الكرم، التّسامُح...)، والّتي لها علاقة أيضا بمفاهيم الفلسفة الاجتماعيّة: على أنَّنا مخلوقاتٌ تمتازُ بتفرُّدها، وبأنَّ الأنا هي دائمًا في حالة انكشاف ظاهري أمام الآخر الّذي هُو أمامي، وإنَّ ما يصنعُ هذهِ الفُرادة / التّفرُد Singularity القابلة للاستبدال بكلماتٍ أخرى هُو هذا الانكشاف المفتوح على الوُجود الماديّ المتمثِّل في الجسد وهذا تمامًا ما تُوَضّحهُ بتلر بقولها:

" تفرُّدُ الآخر مكشوفٌ لي، لكنَّ تفرُّدي مكشوفٌ لهُ أيضًا. وهذا لا يعني أنّنا شخصٌ واحد، لكنَّهُ يعني فقط أنَّنا مُرتبطانِ بعضُنا مع بعض بما يُميّزُ بيْننا، وهُوَ تحديدًا تفرُّدُنا "[1]. فإنَّ ثمَّةَ فرقًا إذًا بين أنْ أعترفَ بشخصٍ لأنَّ هناك تجربة ماضية عشتُها أو أنا بصددِ عيْشها تُمكّنُني من الحُكم على حالة الآخرين أيضًا لأجل اكتساب الفهم الإنسانيّ وبين أن أعترف بشخصٍ لأنَّهُ مصدرُ تحصيل أصالتي بالانكشاف. بأنّ الأنا في الاعتراف بالمماثلة عند موران تقع تحت مسمّى الشّخص باعتبارهِ، وضعًا أخلاقيًّا عامًّا يُمنَحُ للأفراد، الأفراد بحُكمِ إنسانيّتهم، والّذي يعترفُ باستقلاليّتهم ومسؤوليتهم عن أفعالهم. إنّهُ كما جادلَ موس امتداد لمفهوم الطّبيعة الفريدة إلى المجال الأخلاقي للفرد [2]، وعند بتلر هي ذاتٌ واعية فقط بهويّتها الفريدة بالنّظر إلى ما يُميّزُها أو يفصلُها عن باقي الذَّوات الأخرى من خلال فكرة أنّي موجودٌ في الوُجود بين مجموعةٍ من الذَّوات والّتي تُشكِّلُ أيضًا ذواتًا فريدة بالنّسبة إلى ما يُقابلها بوصفهِ موضوع العلاقة المباشر معها.

يدافعُ موران عن فكرة الفَهم المبدئي للآخر لأنّهُ يُحيلُ بطريقةٍ مباشرة على معرفةِ الذّات لذاتها في مرحلة مُعيّنة من مراحل حياتها بواسطة التّعاطف الإسقاطي La sympathie projective أو العدوى العاطفيّة La contagion affective، حسبَ ما أشارَ إليهِ بقولهِ:" الفهمُ هوَ المعرفة الّتي لا تجعلُ فاعلًا يفهمُ فاعلًا آخر فحسب بل أنْ يفهم ما هوَ موسومٌ بالذّاتيّة والعاطفيّة "[3]. ولكن هذا لا يكفي، لأنَّ الفهم

---

(1) voir : Martin Buber, I and Thou, translation by Walter Kaufman, Publisher Charles scribner's sons, 1970.

(2) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، دار توبقال، المغرب، ط1، 2002، ص 88.

(3) المصدر نفسه، ص 87.

(1) جوديث بتلر، الذّات تصفُ ذاتها، دار التّنوير، بيروت، ط1، 2014، ص 82.

(2) Michael Carrithers et autres, The category of the person(Anthropology, philosophy, history), Cambridge University press, Frist published, 1985, p 133.

(3) إدغار موران، المنهج" معرفة المعرفة، أنثروبولوجيا المعرفة "، ج3، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2012، ص 221.

يتجاوز حدود التّعاطُف، وإنَّ التّعاطُف لا يعني بالضّرورة الفهم لأنّهُما لا يتطابقان. صحيح أنّي أتعاطف مع الآخر وأُدركُ ما يُعانيه دون أنْ أعيش هذه التّجربة. كتب ماكسيم تشاستانج M. Chastaing في دراستهِ المعنوَنة ب: الآخرين على طبيعتك (المشكلة الزّائفة في معرفة الآخرين) ما يلي: الآخرُ حاضر في تجربةٍ مُقلّدة Une expérience imitative. الّذي يبدو غريبًا. من حقيقة أنَّ الأنا تستوعبُ جانبًا من جوانبك، فهذا لا يعني أنَّ الأنا في وضعٍ عاطفي مُماثل لوضعك. يُمكنُنا القول أنّنا نتعاطفُ دون أنْ نتعاطف مع الآخرين[4]. وليتمكّن تشاسانخ من توضيحِ فكرتهِ فإنّهُ يضربُ مثالًا عن الشّفقة يقولُ فيه:

إنَّ الشّفقة تحملُ شهادةً رائعة. نحنُ ندركُ معاناة الآخرين، ولا نشاركُ فيها، لأنَّ الشّفقة بالتّحديد تتطلّبُ أنْ تقدّمَ نفسها على أنّها ذاتٌ غيرُ مرغوبٍ فيها. لأنّني أعتقد أنَّ إمكانيّات وُجودي تختلفُ اختلافًا جوهريًّا عن إمكانيّات الآخر، وأنّني اعتبرُها أعلى منها، وأُشفقُ على الآخر لأنّني أفهم الحالة العاطفيّة للفرد، وأنّني لا أعيشها، ولا أريد عيْشها، لأنَّ حقيقة عيْشها ستمنعُني من الحُكم على حالتي المتفوّقة[5].

فمِنَ المهِم أنْ نعرفَ إذًا، أنَّ الفهم عند إدغار موران مجرَّدُ مسألة نسبيّة فيما يتعلّقُ بإمكانيّة مُعارضتهِ. إنَّ اعتراف المطابقة عند موران ومن وِجهة نظر تشاسانج في هذهِ الحالة هُو الشّرط الضّروريّ الضّامن لتبرير كلّ أنواع سوء الفهم والتّباعُد الموجود في عالم العلاقات، في الأسرة، ومكان العمل، وفي الشّارع...، بسبب " الأفكار المسبقة، وأنواع التّبرير العقلاني المعتمدة على أوّلياتٍ اعتباطيّة، وتبرير الذّات بشكلٍ جنونيّ، والعجز عن النّقد الذّاتي، واعتماد طريقة ذُهانيّة في البرهنة، والكبرياء، والجحود والاحتقار، وخلق مُتّهمين وهميّين والعمل على مُحاكمتِهم "[1].وما يُطلَق عليه اعتراف المماثلة يمكن أن يُطلَقَ عليهِ أيضًا اعترافُ اللّاتماثل في كونهِ تلك الحركة المعاكسة، النَّشِطة والمستدامة باتّجاه نفيْ الآخر. هذا الآخر باعتبارهِ سلبيّةً خالصة لا تُعبّرُ عن شيء سوى عن نفسها. ومهما كان ظهورُ هذا الآخر مُحتشمًا فإنَّهُ الشّرط الأنطولوجي لظهور الأنا.

3، من عصر التّكنولوجيا عصر التّدمير الخلّاق للفهم إلى الشُّروط الفريدة للفهم

1.3 في اللّافهم

والحقُّ إنَّ الحسنَة الكبرى المشهودة لعصر الأنترنت، لا فيما يخصُّ التّدفُّق السّريع للمعلومة ولكنْ فيما يخصُّ " إظهارَ الغير Autrui-phanie" [2]كما يقولُ ستيفان فيَال S. Vial. لقد عُوِّضَت علاقاتُ الجوار الحضوريّة Presentielle الّتي ميَّزت المجتمعات القديمة بالتّواصل عن بُعد Communication à distance ولذلك حلَّت مقولة الشّبكة Réseau محلَّ المجتمع أو الجماعة المحسوسة La communauté concrète، وصار لابُدَّ أنْ تكون متّصلًا Branché ومندمجًا Inséré ومُرتبطًا Connecté، تلك هي الكلمات المفاتيح لعمليّة التّفاهُم[3] .

(4) Maxime Chastaing, Les Autres comme soi- même(les faux problème de la connaissance d'autrui), Édition critique par Jacques Chastaing et Frédéric Fruteau de Laclos, Classiques Garnier, 2016, P 65.
(5) Ibid., p 64.

(1) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، مصدر سابق، ص 91.

(2) ستيفان فيَال، الكينونة والشّاشة" كيف يُغيِّر الرّقمي الإدراك "، هيئة البحرين للثّقافة والآثار، المنامة، ط1، 2018، ص 204.

(3) محمّد بالرّاشد، تعليم التّفاهُم عند إدغار موران" قراءة في المعرفة السّادسة الضّروريّة لتربية المستقبل "، مجلة تفاهُم، العدد 42، 2013، ص. ص 349، 350.

برغمِ التّقارب بين المتباعدين فيما يتعلّقُ بالانتشار القوي لوسائل التّواصل، إلّا أنّنا لسْنا قادرينَ بعدُ على التّفاهم، فمن العسير علينا "رقمنةُ الفهم Numérisation de la Compréhension "، وهذا ما أشار إليهِ موران في حدّ قولهِ: " لا تقنيّة من بين تقنيات التّواصل، من هاتفٍ، ومن أنترنت، تحملُ في ذاتها خاصّية الفهم. لا يمكنُ إضفاء الطّابع الرّقمي على الفهم " [4].

2.3 أخلاق الفهم وشروطُها

حتّى نتمكن من مُجاوزة عوائق سوء الفهم، والّتي" بسببها نشأت الحاجة إلى دراسة عدم الفهم في جذورهِ وطرائقهِ وآثارهِ، وتزدادُ قيمةُ مثلِ هذه الدّراسة لأنّها لا تهتمُ بالأعراض بل بأسباب الإهانة والعنصريّة، وهي تمثّلُ في الوقتِ نفسهِ إحدى القواعد الثّابتة للتّربية على السّلام الباطني لكلّ شخص، والسّلام الشّامل بين بني البشر" [1]، والّتي يُجملُها إدغار موران في نزعة التّمركز على الذّات L'Egocentrisme الّتي تؤدّي إلى التّعامل مع الآخرين بطريقة غير لائقة، نحاول من خلالها البحث عن مبرّرات لإقناع أنفسنا بأنّنا دائمًا على صواب، ونزعة التّمركز حول العرق Ethnocentrisme والمجتمع Sociocentrisme، والّتي تؤدّي بدورها إلى رفض الآخر بسبب الصّراعات والنّزاعات العنصريّة الّتي تُشجّع على الانغلاق داخل الجماعة الواحدة وتمنع التّواصل المشترك بين الشّعوب والأمم، يجبُ علينا تعليم وتعلُّم ما هي أخلاق الفهم L'Éthique de la compréhension أوّلا؟، وهذا يعني أنّ المجتمع بإمكانهِ العمل على تسويّة العلاقات فيما بيْننا وتحسينها. ذلكَ أنّ أخلاق الفهم تقتضي منّا " أنْ نُحاجج وأنْ نُفنّد، عوَض أنْ نعزل الآخرين ونلعنهُم. فأنْ نسجُن داخل مفهوم الخائن كلّ من له رؤية أوضح، يعني أنْ نمنع عن أنفسنا الاعتراف بالخطأ، وبالضّلال، وبالأيدلوجيات، وبالانحرافات "[2].

ولهذا فإنّ إدغار موران يقترحُ مجموعة من العوامل المساعدة على تعزيز الفهم، وهذه العوامل يمكن أنْ يصبح معها الفهم عبارة عن مهارة مكتسبة للعيشِ معًا، وهي كالآتي:

- ✓ **التّفكير الجيّد: Le Bien penser**

إنّ ممارسة التّفكير بشكلٍ جيّد حسب موران هي ما يسمحُ لنا " بفهم الشّروط الموضوعيّة والذّاتيّة للسّلوك الإنساني (خداع الذّات، وكلُّ ما يستحوذ علينا من إيمان، ومن أنواع الهذيانات والهستيريات) "[3].

- ✓ **الاستبطان: L'introspection**

يُعدُّ الاستبطان عاملًا قويًّا من عوامل إعادة تقييم الذّات ومراجعتها، ومن خلالهِ نستطيع أنْ "نكتشف أنّنا جميعًا كائنات مُعرّضة للخطأ، هشّة، وغير مُكتفية بذاتها، وقاصرة، آنذاك يُمكنُنا أنْ نكتشف أنّنا جميعًا في حاجة مُتبادلة للفهم "[4].

- ✓ **الوعي بالطّابع المركّب للإنسان: La conscience de la complexité Humaine**

وأمّا فهم الغير عند إدغار موران، فإنّهُ يتّسقُ أيضًا مع فكرة الطّابع المركّب للإنسان، حيثُ يظهر هذا الأخير كائنًا شديد التّعقيد، أحاديًّا ومُتعدِّدًا، وإنّ هذهِ الوِحدة والتّعدُّد بصفةٍ عامّة هُما ما يجعل حياة الإنسان العاقل حُبلى بحيوَات عاطفيّة، وأخرى جنونيّة، دينيّة وأسطوريّة، وفنّيّة... وفي الواقع، كان الإنسان ولا يزال، ما ليسَ واحدًا في ذاتهِ. وبيْنما هُوَ- الإنسان – في جزءٍ من طبيعتهِ قابل لِأنْ يُعرَّفَ بدايةً بأشكالَ أخرى من العقل، فهذا يعني أنّ مفهوم العقل في التصاقهِ بالإنسان، قابلٌ أيضًا للفحص والمراجعة والنّقد، ولقد تأكّدَ الحضور القويّ

(4) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، مصدر سابق، ص 87.

(1) إدغار موران، تعليم الحياة" بيان لتغيير التّربية"،منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2016، ص 71.

(2) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، مصدر سابق، ص 93.

(3) المصدر نفسه، الصّفحة نفسُها.

(4) المصدر نفسه، ص.ص 93، 94.

لهذهِ الأشكال في معنى قولهِ:" إنَّ خاصِّيَّة الإنسان العاقل غير كافية على أيِّ حال، فهي تجعل من الإنسان مخلوقًا يجهل الجنون والهذيان، محرومًا من الحياة العاطفيَّة، والخياليَّة، والمسلِّية، والجماليَّة والأسطوريَّة والدِّينيَّة ولهذا يتوجَّب علينا تصحيح مفهوم الإنسان العاقل واستكمالهِ ومُجادلتهِ "[1].

ومن هذهِ النَّاحية، ولما كانت أشكال الحياة تلك تنتمي إليْنا، فإنَّ القَبُول بفكرة الإنسان باعتبارهِ نسيجًا شديد التَّعقيد معناه القَبول أيضًا بفكرة عدم القدرة على إمكانيَّة اختزال الإنسان في أيِّ جُزء من ذاتهِ الصَّغيرة أو الكبيرة، أكانَ الجانب الأسوَء من شخصِه أو الأفضل،" بيْنما نحنُ في حياتنا العاديَة نتسرَّع في حصر شخصٍ داخل نَعت المجرم لأنَّهُ قام بجريمةٍ ما، مُختزلين كلّ الجوانب الأخرى من حياته ومن شخصيَّته في خاصِّيةٍ واحدة"[2]. ويتمُّ هذا قولًا واحدًا في إطار منظومة فكريَّة تسمح بجمع المتناقضات والمتعارضات في سياق علاقة حواريَّة تضادِّيَّة وتكامليَّة معًا. وفي هذا لا يعود الفكر فكرًا سوى لأنَّهُ يُشكِّل ويحملُ في جزءٍ من ذاتهِ " الإنسان ". ولأجل تأكيد هذهِ الرُّؤية لدى موران، نجدهُ يسترسلُ قائلًا:

" فالفكرُ يُقيمُ حواريَّةً بين العقلانيّ والتَّجريبيّ، بين المنطقي والتَّناظُري، وبين التَّناظُري، وبين العقلاني والأسطوري، وبين الواضح والضَّبابي، وبين الشَّك واليقين، وبين النِّيَّة والفعل، وبين الغايات والوسائل، وراء هذهِ الحواريَّات هناك الشَّك والإرادة، والخيال والمشاعر، والقلق إزاء سر الكون، بمعنى أنَّ الفكر يُشركُ الكائن برُمَّته. إنَّ الفكر إذًا، أحاديًّا، تعدُّديًّا، ومُتعدِّد الأشكال، يبتكر استراتيجيَّات فكريَّة أو علميَّة متنوِّعة بحسب المشاكل الَّتي يُصادفها، ويستخدمُها " [3].

وبيْنما نحنُ نستطرد فكرة موران عن الإنسان المركَّب وعن الحواريَّة في الفكر، نرى كيفَ اختُزِلَ فريدرش بارت [4]– وغيرُهُ كثيرون – إلى إنسانٍ مجرم سيِّء السُّمعة في نظر القانون والنَّاس بسبب مواقفهِ التَّنويريَّة المعاديَة للسُّلطة في البلاد والنَّاقدَة للتَّوجُّهات الدِّينيَّة للكنيسة في عصره، تلك المواقف الَّتي نُسِبَت إليه فيما قيلَ عنها من خلال كتابيْن اثنيْن وهُما:" تعليق على المرسوم الدِّيني " و" ملهاة من خمسة فصول باسم المرسوم الدِّيني "، أصبح على إثرها مُلَاحقًا من طرف السُّلطات، برغم المسعى النَّبيل الَّذي ناضلَ من أجلهِ فيما يتعلَّق رأسًا بتعليم السَّعادة الرُّوحيَّة للنّاس، ولِأنَّ هذا الاطمئنان إلى ما هُوَ روحي يكشف عن أمر حيوي" في أنْ نرى كيفَ يمكن لمجرم أنْ يتوب ويسترجع سُمعتَهُ، مثلما حدثَ مع جون فالجون أو رازكولنيكوف " [1]، ومن ذلك محاولاته العديدة الفاشلة" لتحرير العقيدة المسيحيَّة ممَّا اعتبرهُ شوائب رهبانيَّة، وكان يرفض كلّ التَّعاليم غير العقليَّة المتعلِّقة بالخلود وعذاب النَّار والخطيئة الموروثة، ثمَّ راح يشرح الإنجيل ويُفسِّرهُ في لهجةٍ شعبيَّة أيْ بما يتوافق مع لغة وإدراك عصره. كما عمدَ بارت في كتابهِ" خطَّة يسوع وهدفه " إلى تصوير المسيح كزعيم طائفة تنويريَّة "[2]. بغضّ النَّظر

---

(1) إدغار موران، النّهج" إنسانيّة الإنسان، الهويّة البشريّة "، ج1، هيئة أبو ظبي للثّقافة والتّراث(كلمة)، أبو ظبي، ط1، 2009، ص 141.

(2) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، مصدر سابق، ص 94.

(3) إدغار موران، النّهج" إنسانيّة الإنسان، الهويّة البشريّة"، ج1، مصدر سابق، ص 127.

(4) كارل فريدرش بارت(1740/ 1792)، أستاذ الدّراسات اللّاهوتيّة في العديد من الجامعات الألمانيّة، ناقد ديني ورجل سياسي مُؤيِّد للثّورة الفرنسيّة، ومُصلح تربوي واجتماعي من مُعتنقي أفكار التّنوير الرّاديكالي في ألمانيا المتآمر والمهين للذّات الملكيّة، ألَّفَ أكثر من 160 كتاب في اللّاهوت والسّياسة والتّربية والفلسفة. بتصرّف عن كتاب: يُورغ– ديتر كوغَل، أدباء أمام المحاكم" الأدب الممنوع عبر أربعة قرون "، مؤسّسة شرق غرب– ديوان المسار للنّشر، الإمارات العربيّة المتّحدة، ط1، 2009، ص.ص 49، 70.

(1) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، مصدر سابق، ص 94.

(2) هارُو تسمِرمان، ليسَ قديسًا، كارل فريدرش بارت، ضِمنَ كتاب: يُورغ– ديتر كوغَل، أدباء أمام المحاكم" الأدب الممنوع عبر أربعة قرون "، مرجع سابق، ص. ص 53، 54.

عمَّا كان يكتنف حياتهُ الشَّخصيَّة من غموض، هذا ما يُفهَم على الأقل من وصف روبرت بروتس المؤرِّخ الأدبي اللِّيبرالي في منتصف القرن التَّايع عشر، وكما صوَّرتهُ الملهاة لأوغوست فون كوتسينو حينما كتبَ قائلًا:" منذُ أنْ ظهرَ في الحياة العامَّة، وحتَّى تقلُّبهُ في مُستنقع حياة عامرة بالمغامرات، وهوَ لا يزال يتمرَّغ في حَمأَة القذارة والبُؤس والانحدار الرُّوحي والجسدي، وفي كلّ تلك الفترة كانَ خليقًا بسوء السُّمعة لا بالشُّهرة "[3].

فإنَّ شرعنَة الفهم الإنساني في أبسط صُوَرهِ إذًا، يقتضي لا تأسيس الوِحدة باستحضار التَّعدُّد وحسب، وإنَّما في إعادة ترميم أفكارنا وتصوُّراتنا إزاء الآخرين، وبأنَّ هؤلاء هُم من يتموقع في حضرة الوُجود ويُشاركون في صناعة حياتنا، بأسوَء لحظاتها وأحسنها. ولأنَّ كلّ منَّا مدِين في جزء من سعادتهِ إمَّا لصديقٍ حميم أو زوج رجلًا أوِ امرأة، كفضل الآنسة آنْ سُوليفان على هيلين كيلر H. Adams Keller [4]، ولنتَمكَّن من أنْ نعيش دائمًا على وِفاق، علينا أنْ نشعر بوُجودهم كأفراد حقيقيِّين فاعلين، بأنْ نوفِّر بعض الجُهد في فحص فهُومنا الذَّاتيَّة اتِّجاه بعضنا البعض.

✓ **الانفتاح الذّاتي (التّعاطفي) على الغير: L'Ouverture subjective(Sympathique) à Autrui**

قد لا نكون عاطفيّين بما فيه كفاية، ولكن يغدُو التّعاطُف مع الآخر مسألةً حيويّة لا مفرَّ منها، باعتبارهِ أحد أهمّ القواعد الرّاسخة لتحقيق الفهم بين البشر. وإنّنا نستطيعُ فهمَ الآخرين وأنْ نُشاركهُم حياتهُم حتّى في الأفلام والرّوايات، ولكنْ أيضًا بالمحافظة على ذاتيّتنا، فمِن وِجهة نظر موران " إذا كنّا نعيش بكثافة بواسطة العقل حيوات أبطال أفلامنا، ومشاعرهم، وغرامياتهم، ورغباتهم، ومخاوفهم، وأحقادهم، فذلكَ لأنَّ آلة الإسقاط والتّماهي الرّائعة بدأت تشتغلُ فينا جاعلةً من مشاهدتنا الفيلم لحظةً ممتازةً لفهم الآخرين: إنّنا بعُمقٍ نفهمُ المتشرّد والمجرم والقاتل في حين أنَّ جسور التّماهي معهُم مقطوعة في الحياة العاديّة. لسْنا قادرين ربّما على فهم الآخرين بهذهِ الدّرجة إلّا في السّينما "[5].

وهكذا يمكنُ تفسير الفهم لا كمعرفةٍ تفهم الآخر وِفقَ منطق العلوم التّجريبيّة وإنّما كمعرفة تندرج داخل تجربة مُحاكِيَة تُمكّنُ من معرفة ما يشعُر بهِ الآخر وما يُحسُّ بهِ بشكلٍ أفضل، وفي هذا السّياق كما يؤكد إدغار موران ينبغي أنْ نقف عند الفرق الجوهري بين أنْ نُفسّر وأنْ نفهم، " فأنْ نفسّر يعني أنْ نتعامل مع الفرد أو المجموعة باعتبارهم موضوعًا، ونُطبّق عليهم كلّ الوسائل الموضوعيّة للمعرفة، ويمكنُ للتّفسير أحيانًا أنْ يكون كافيًا للفهم العقلي أو الموضوعي، لكنّهُ في كلّ الحالات لا يكفي للفهم الإنساني. وهكذا فهذا الأخير هُو القائم على الذّاتيّة البيْنيّة، الانفتاح على الآخر، والمشاركة الوجدانيّة، والتّعاطُف "[1].

✓ **استدخالُ التّسامُح: L'intériorisation de la tolérance**

كلٌّ منَّا يميلُ إلى الشَّك في أنَّ التّسامح قد يُعتبرُ مصدر ضُعف في شخصيتنا، نظرًا لأنَّنا بالطّبيعةِ مُتسلّطين وأنانيّين وسياديّين. وهذا الأمر ليس بالجديد، وإذْ هذا أيضًا ليس سوى التّقسيم الطّبيعي للبشر في تفكيرهم، وآرائهم، ومظهرهم، وأذواقهم، وقناعاتهم، واعتقاداتهم، وأنماطِ عيْشهم. برغمِ أنّنا نستطيعُ مواجهة النّزعة الفرديّة، أو على الأقل تهذيبها، ولهذا فقد أصاب موران في ملاحظتهِ الّتي قال فيها :" لا يعني التّسامُح الحقيقيّ نوعًا من اللّامبالاة اتّجاه الأفكار، أو اتّجاه النّزعات الشكّيّة المعمَّمة، بقدرِ ما يعني افتراض وُجود قناعة، أو إيمان، أو اختبارٍ أخلاقي لديْنا، ولكن يعني كذلك أنْ نقبل في الوقت نفسهِ بالتّعبير عن أفكار، وقناعات، واختياراتٍ مُناقضة لتلك الّتي لديْنا "[2].

---

(3) المرجع نفسه، ، ص 50.

(4) لمزيد من التّفاصيل عن حياة الكاتبة هيلين كيلر، يمكن مراجعة كتاب: هيلين كيلر، قصّة حياتي العجيبة، تر. محمّد وهدان.

(5) إدغار موران، المنهج" معرفة المعرفة، أنثروبولوجيا المعرفة "، ج3، مصدر سابق، ص 216.

(1) إدغار موران، تعليم الحياة" بيان لتغيير التّربية "، مصدر سابق، ص 69.

(2) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، مصدر سابق، ص 95.

وتماشيًا مع رؤية إدغار موران الّتي يطرحها في عملهِ الرّئيس: تربية المستقبل، ومن هذهِ النّاحية في اعتبار التّسامح أحد أهمّ القيم الأساسيّة المنوطة بدعم التّفاهُم بين الأفراد، يقدّمُ سيرغي كارتاساف S. Cartasev عملًا شبيهًا بذلك، " عالمٌ واحد، تعليم التّسامح والمشاركة One World, Teaching Tolerance and Participation"، وهُو في الأصل كتاب مُوجّه لتلاميذ المدارس يتضمّن أكثر من ستّين خطّة درس تساعد الطّلاب على فهم معنى التّسامح، وتحديد العوامل المؤدّية إلى السّلوك المتسامح، بالإضافة إلى تعليم مهارات أخرى تتعلّق بكيفية اتّخاذ القرارات المناسبة لحياتنا، والتّفكير بطريقة إبداعيّة ... في حين أنَّ التّعليم التّقليدي كما يؤكّد كارتاساف اكتفى بتعليم المواد الأكاديميّة الّتي يحتاجُها أطفالنا للنّجاح، بدلًا من تعليمهم مهارات الحياة العمليّة الحيويّة للعيش في القرن الحادي والعشرين، ففي عصر العولمة يواجه الأطفال عالمًا مُتنوّعًا بشكلٍ مُتزايد حيثُ الإيديولوجيّات المتطرفة القائمة على الكراهية تهدّدُ الحضارة، إنّهُم بحاجة إلى فهم قيمة التّسامح ويجب أنْ يتعلمُوا كيفية العمل معًا في جوٍّ من التّسامح لتحقيق الأهداف الشّخصيّة والمجتمعيّة [3].

وسيكونُ التّسامح مُستحبًّا إذا كان مبنيًّا على فهمُ الذّات أيضًا، لأنّ فهم الذّات Self- Understanding كما أشار كارتاساف إلى ذلكَ بحرارة: أمرٌ حيوي لتنمية مجتمع التّسامح. ما لم نفهم أنفسنا، لا يمكننا فهم كيفية ملاءمتنا لمجتمعاتنا ودولنا والعالم بشكلٍ عامّ. لا يمكنُنا التّماهي مع الآخرين وإدراك ما هُو مشترك بين جميع البشر. يساعدنا فهمُ الذّات أيضا في التّغلب على العقبات والتّعامل مع الأزمات وتحقيق أهدافنا [1].

أنواع التّسامح عند موران: وهُوَ على أربع أنواع، نُورِدُها على النّحو الآتي:

فالتّيار الأوّل للتّسامح، يُمثّلهُ فولتير، ويتعلّقُ أساسًا بمطلبٍ حقوقيٍّ بحتْ، وهُوَ" احترام الحقّ في حرّية التّعبير " [2]، والّذي يجب أنْ نلتزم فيه بعدم" فرض تصوُّرنا الخاصّ لِمَا هُوَ دينيء كمُبرِّر لمنع حقّ الغير في الكلام"[3]. أمّا الثّاني، فهُوَ يعيدُ إلى الواجهة أحد أهمّ المبادئ الّتي قامت عليها الأنظمة الدّيمقراطيّة الحديثة. وإنَّ المبدأ الدّيمقراطي في هذهِ الحالة" يُلزِمُ كلَّ واحدٍ منَّا باحترامِ التّعبير عن أفكارٍ مناقضة لأفكارنا" [4].

المستوى الثّالث للتّسامح، يُمثّلهُ نيلز بُوهر وهُوَ الموقف الّذي الّذي يُفيدُ بأنَّ" نقيض فكرة ما عميقة هُوَ فكرة أخرى عميقة، وبصيغةٍ أخرى الاعتراف بِثِمةٍ حقيقيّة في الفكرة المناقضة لفكرتنا، وهذهِ الحقيقة هي الّتي يتعيَّنُ علينا احترامها "[5].

المستوى الرّابع والأخير، يبدُو أكثرَ أهمّية، وهُوَ الّذي يَخضعُ فيه التّسامح لجملة الأفكار والمعتقدات والأساطير وحتّى الآلهة والأوهام الّتي يُنتجُها الإنسان. هذهِ الّتي يمكن أن تؤدّي بالأفراد إلى نتائج غير محسوبةٍ على المدى البعيد. وإنَّ التّسامحَ إذًا، على هذا الصّعيد" مُتعلّق بالأفكار، وليسَ بالشّتائم، وبالاعتداءات، وبالأفعال الإجراميّة " [6].

وإنْ كانَ إدغار موران اكتفى بالإشارة إلى أنواع التّسامح هذهِ، فإنَّ أقلّ ما يمكن أنْ يُقالَ عنها أنّها مُتوقّفة في جُملتِها على الأفكار والتّصوُّرات الّتي يُنْشِئُها الفرد عن الآخرين، وعن أفكارِهم وآرائِهم المنُوطة بالرّفض أوِ القَبُول. وإنَّ هذا التّسامُحَ المزعُوم المؤجود لأجلِ

(3) Serghei Cartasev, One World (Teaching Tolerance and Participation), By international Debate Education Association, New York, 2006, p 01.

(1) Serghei Cartasev, One World (Teaching Tolerance and Participation , Op.cit, p 33.

(2) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، مصدر سابق، ص 95.

(3) المصدر نفسه، الصّفحة نفسُها.

(4) المصدر نفسه، الصّفحة نفسُها.

(5) المصدر نفسه، الصّفحة نفسُها.

(6) المصدر نفسه، الصّفحة نفسُها.

الآخرين، يُمكنُ لهُ أنْ يتوقَّف فقط، في حالة ما إذا مرَّ عبرَ الدّائرة الأوْسع للسّلطة/ السّياسة وليسَ عبرَ الدّائرة الضّيقة للفرد بُغيَةَ الإعداد للمرحلة القادمة الّتي يُمكنُ أنْ يكونَ فيها التّسامح عالميًّا، أو مَنظُورًا إليهِ من كافّة الجهات.

وبطبيعةِ الحال فإنَّ التّسامح المبني على احترام أفكار الفرد قد لا يَدومُ طويلًا، لأنَّهُ لا يبني في الأصل واقعًا مَتينًا وموْضوعيًّا. إنَّ التّسامح بين الأفراد قد يُستَهلَكُ في ظرفِ لحظةٍ ولا يبقى، أمَّا التَّسامُح العالمي إزاءَ الدُّوَل والثَّقافات ونبذ العنف، فإنَّهُ الغاية والهدف من وُجود الأفراد في المجتمع وهذا ما يُعطي للتَّسامُحِ معنًى وقيمةً، أيْ فِعلَهُ الحقيقيّ في الوُجود. ولكنْ، مِنْ بعدِ الحديث عن التَّسامح باعتبارهِ ذُو طبيعةٍ عالميَّة، يستحيلُ علينَا التَّفكير حتَّى في عالَم مليء ولوْ بالشَّتائم والأكاذيب البيضاء!، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ كلّ محاولة جادَّة لإبطال مفعولهِ في العالم قد تؤدِّي إلى تشويههِ وتزييفهِ.

وحسبَ ما تقدَّم فإنّ التّسامح العالمي إضافةً إلى ما ذكرَهُ موران يُمثِّلُ بالنِّسبةِ إلينا المستوى الخامس ليسَ لِحجب- وهذا ما نستشِفُّهُ طبعًا – التَّوَجُّه الدِّيمقراطي الّذي تَبنَّاهُ موران هنا، أو حتَّى لوَضع حاجز بينَهُ وبين المستويات الأربع للتّسامح.

ويكفي هنا أنْ نُشير إلى موقف هربرت مركيوز H. Marcuse، وهُو بصدد البحث عن أجوبة منطقيّة وتفسيرات موضوعيّة فيما يتعلّق بالأسئلة المطروحة حول العنف والأسباب الكامنة وراء ممارستهِ، حينما أعلن قائلًا: يكونُ التّسامحُ غايةً في حدِّ ذاته Tolerance is an end in فقط عندما يكونُ عالميًّا حقيقيًّا ومُمارسًا. من قبَلِ الحُكّام وكذلك المحكومين، من قبَلِ اللّوردات وكذلك من قبَل الفلّاحين، من قبَل العمداء وكذلك من قبَل ضحاياهُم. وهذا التّسامح العالمي مُمكن فقط عندما لا يتطلّب أيُّ عدوٍّ حقيقيّ أو مزعوم في المصلحة الوطنيّة تعليم النّاس وتدريبهم على العنف العسكري والتّدمير [1]. في هذه الحالة فإنَّ التّسامح نفسُه مُلزَم بمشاركة جميع الأطراف فيه بدون استثناء. ويبدُو أنّنا لا نجد ما هُو أفضل وأنبل من استعطاف قلوب هؤلاء القائمين على إحكَامِ قَبْضتِهم على العالم.

4. في عولمة الفهم، أيُّ مُستقبلٍ للثَّقافات؟

علينا أنْ ننتقل من أخلاق الفهم بين الأشخاص إلى عولمة الفهم المتعلّق بالعصر الكوكبي، وهذه الحقيقة يمكنُ أنْ نُقاربها من عدّةِ نواحٍ فيما يتعلّقُ رأسًا بكيفية تواصل الثّقافات وفهمها لبعضها البعض، في سياق ما يسمّى بالعولمة الثّقافيّة. ومن هذه النّاحية فإنَ كلّ ثقافة هي ثقافة مُكتفية بذاتها إلى حدٍّ بعيد، ولا بُدَّ من أنَّ هذا الاكتفاء الذّاتي يظهرُ بوُضوح في محاولة التّشبُّث بالأصول، والسّعي الدّؤوب للاستفادة من كلّ ما تقدّمهُ التّقاليد المحليّة، ولكن، فإنَّ الثّقافة هجينة أيضًا، وهذا تحديدًا ما يُميّزُها عن غيرها، إنَّ " المهجّن نقيضُ المستنسَخ. ذلكَ أنَّ المستنسَخ حصيلةُ التّماثُلِ التّامّ، بينما المهجّن صنيعةُ عنصرٍ جديد يكتسبُهُ الآخر، صنيعةُ الآخر الّذي حافظَ على استيعابهِ للمُماثل ".[2]

وبنفسِ هذهِ الطّريقة الّتي باركَ فيها إدواردُو بورتيلا E. Portella التّعدّد الثّقافي نفهم الطّرح الّذي يُقدّمهُ موران في هذا السّياق، فلم تعُد الثّقافة في عالمنا المعولَمَ مُواتيَة تمامًا للهويّة الثّقافيّة بوصفِ الأخيرة مفتوحة دائمًا على وجهٍ واحد، وجهُ الهويّة المتمركزة حولَ ذاتها، في أنْ تبقى الهويّة " مظهرًا مُوحِّدًا للأنا الشّخصي والمجتمعي الكُلّي "[3]. وهذا النّموذَجُ من الهويّة نموذجٌ غيرُ مرغوبٍ، لأنّهُ يُلقي بكلّ ثقلهِ وسلبياتهِ على التّاريخ الثّقافي لأمّةٍ ما، وإنّهُ في كلّ مرّةٍ يظهرُ فيها، فإنَهُ يعودُ من ثَمَّ ليُربكُنا ويُقلقُنا ويستطيعُ منطقُ القوّة وحبّ التّسيُّد الّذي يُمارسُهُ على نفسهِ أنْ يُحيلنَا بشكلٍ أساسيّ على موتهِ الخاصّ.

---

(1) Herbert Marcuse, Repressive Tolerance in : A Critique of Pure Tolerance, Beacon Press, Boston, 1965, p 84.

(2) إدواردُو بُورتيلا، الثّقافة في القرن الحادي والعشرين: استنساخ أم تهجين، ضِمنَ كتاب: جيروم بندي، القيم إلى أين، المجمّع التّونسي للعلوم والآداب والفنون" بيت الحكمة "، قرطاج، ط1، 2005، ص 348.

(3) النّاصر عبد اللّاوي، قراءة في الهويّات البديلة من خلال أعمال فتحي التّريكي، ضِمنَ كتاب: من إعداد وإشراف أحمد عبد الحليم عطيّة، العيش سويًّا" قراءات في فكر فتحي التّريكي "، دار الثّقافة العربيّة، القاهرة، ط1، 2008، ص 65.

وعندما نُخضعُ الثّقافة إذًا إلى مقاييسَ مُختلفة باعتمادها من هذهِ النّاحية على فضاءيْنِ مُنفصِلَيْنِ: (فضاء التّعدّد / فضاء الهويّة) هنا فقط يمكنُ للثّقافة أنْ تقبلَ الانفتاح على ما لا يُجانسُها وما لا يُماثلُها، على الوافد والأجنبي، بالأحرى على ما يُعتبرُ جديدًا. ودَعُونا نكونُ أكثرَ دقّة لأنَّ كثرة الصّيَغ المستخدمة هنا لا تُجدي نفعًا للحُكم على مدى تأثير ثقافة على أخرى، إنَّ المشكلة الحقيقيّة هي فيما شرعَ في تأكيدهِ أُومبيرتويكو U. Eco، فيما تحملهُ كلُّ ثقافةٍ من " حكمةٍ مُبهمة " نسعى جاهدينَ لمحاولة فهمها، وفكّ رموزها، ولَرُبَّما هذا ما أدّى بإيكو إلى الانتقال إلى فكرة أخرى محسوبة ليس من الضّروري أنْ نجعل بينها وبين فكرتهِ سالفة الذّكر حدودًا فاصلة من حيثُ الخصائص والمميّزات، وبالعكس لا يُمكنُنا أنْ نفهم هذهِ الخصائص والمميّزات إلّا بتجاوز الفرُوق الممكنة بين الحكمة المبهَمة الّتي أعادَ صياغتها في عبارةٍ قويَّة سمّاها بالغرائبيّة Exoticism الموجودة في قلب الثّقافة الواحدة، والّتي" بواسطتها تبتكر ثقافة ما صورة مثالية لثقافةٍ بعيدة نموذجيّة "[1]. وهذهِ الصّورة بالإمكانِ رصدُها أيضًا عند الأشخاص، كموليير بالنّسبة لجاك مونورُو، أو فاجنر بالنّسبة لنيتشه، في أنْ أختارَ معبودي حدَّ التَّدلُّه، فيما قالهُ تزفيتان تودوروف T. Todorov ذلكَ الّذي يُغني، ويرقص، ويكتُب، ويُمثّل، ويرسُم ...

كتب إدغار موران قائلًا: " في كلّ ثقافة تكونُ العقلياتُ المهيمنة متمركزة حول العرق أو حول المجتمع، أيْ أنّها تكون منغلقة اتّجاه الثّقافات المغايرة. ولكن هناك داخل كلّ ثقافة عقليات متفتّحة، وفضوليّة، وغير أرثوذكسيّة، ومنحرفة "[2]، وإذْ ليس ثمَّةَ ما يُثيرُ إعجابنا بما هوَ جديد في غالب الأحيان، من ذلك غناءُ سلوكينع الّذي أثارَ حفيظة الكثيرين في آخر حفل لهُ بالجزائر، أو رقصُ مايكل جاكسون...، وخلف هذا اللّا إعجاب، واللّامبالاة هناك دافع قويّ وخطير لتبرير عدم احترام الثّقافات لبعضها البعض وفسح المجال لطغيان النّزعة الفرديّة، وأشكال التّعصُب والنّزاع الّتي تزيد من تعميق الفجوة بين ثقافة وثقافة أخرى غير مرغوب فيها.

لم يُبدِّد زيغمونت باومان Z. Bauman أيَّ فرصةٍ للقول بأنَّ " العلاقات الثّقافيّة لم تعُد رأسيّة بل أفقيّة، فليسَ لأيّة ثقافة أنْ تطلُب التّبعيّة ولا الامتهان ولا الإذعان من جانب أيّة ثقافة أخرى استنادًا إلى تفوُّقها المفترض أو تقدُّميّتها المفترضة. إنَّ طُرُق الحياة اليوم تندفع في اتّجاهات متنوّعة ليست مُنسّقة بالضّرورة، إنّها تتلاقى وتنفصل، وتقترب وتبتعد، وتتجاذب وتتنافر، وتتصارع وتتبادل الخبرات أو الخدمات، وهي تفعل ذلك كلّه وهي عائمة في تعليق الثّقافات الّتي تتمتّع جميعًا بثقلٍ نوعي مُشابه أو مُماثل تمامًا "[3].

بالنّسبةِ إلينا فإنَّ كلامَ باومان يُشبهُ كثيرًا ما لا يزالُ عليهِ تفكيرُ إدغار موران اليوم، وبالتّالي مادامت هنالك قابليّة قويّة للمقارنة تشدُّنا إلى رسم معالم تفكير مُشابهة، فإنَّ الحضارات والثّقافات قابلة للمقارنة فيما بيْنها أيضًا، وهذه الفكرة الّتي أشار إليها كلّ من رونيه غينون R. Guénon وأولريش بك U. Beck منذ عدّة سنوات [1]، أشار إليها موران استنادًا إلى القول بأنَّ كلّ ثقافة هي مُعلّمة ومتعلّمة في الوقت نفسهِ، وإنَّ الّذي يجبُ التّخلي عنه هُو تلك الثّقة المتزايد في أنَّ الغرب هُو دائما على رأس كلّ حضارة، أو كما يقولُ إيكو إنَّ المشكلة الحقيقيّة الآن تتعلّقُ " بدافعِ الخلود بداخلنا الّذي يجعلُنا نظنُّ أنَّ قواعدنا هي القواعد الذّهبيّة "[2]. وقد لخَّصَ موران فحوى هذهِ الفكرة في قولهِ: " الثّقافات لا تكونُ في حدِّ ذاتها كاملةً أو خالية من العيوب مثلما أنَّنا نحن أنفسنا غيرُ كاملين أو مُنزهين عن العيوب. فجميع الثّقافات، كشأن ثقافتنا هي خليط من الخرافات والتّخيُّلات والتّثبيتات والمعارف المتراكمة الّتي لم يَطَلْها النّقد والمغالطات الفادحة والحقائق

(1) أومبرتوإيكو، حكايات عن إساءة الفهم، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، القاهرة، ط1، 2006، ص 43.

(2) إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، مصدر سابق، ص 96.

(3) زيغمونت باومان، الثّقافة السّائلة، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، بيروت، ط1، 2018، ص 41.

(1) راجع كتاب: رونيه غينون، أزمة العالم الحديث، المركز الإسلامي للدّراسات الاستراتيجيّة، العتبة العبّاسيّة المقدّسة، ط1، 2016، الفقرة من ص 35.
وأولريش بك، هذا العالم الجديد" رؤية مجتمع المواطنة العالميّة "، منشورات الجمل، كولونيا، ط1، 2001، ص 136.

(2) أومبرتوإيكو، حكايات عن إساءة الفهم، مرجع سابق، ص 73.

المكينة "[3]. حقًّا إنّ القدرة على مَد جسور التّواصل وخلق التّنوُّع والاختلاط بين مختلف ثقافات العالم كامِن في تحقيق الوعي بمدى قدرتها إمّا على الانغلاق أو الانفتاح، وهذا الوعي يتفاوت بحسب قدرة أيّ ثقافة أيضًا على تصويب وتصحيح عيوبها اتّجاه الثّقافات الأخرى.

فعندما يتعلّق الأمر بالفنّ، – أو بالفكر في مجال إنتاج الكتاب وترجمتهِ بألْسُنٍ متعدّدة في مختلف تخصّصات المعرفة، أو بالصّناعة السّينمائيّة– ، " لا تنحُو العولمة الثّقافيّة إلى التّجنيس "[4]، ففي الموسيقى هنالك ما لا يُعدُّ ولا يحصى من الأمثلة، من ذلك نجدُ الفلامينكو والجاز والرّوك الّتي عرفت انتشارًا واسعًا في مختلف أنحاء العالم، والّتي من خلالها نرى النّاس يتواصلون فيما بيْنهم بالرّقص على أنغامها بمحافظة كلّ لون موسيقي على هويّته الخاصّة به، رغم التّداخلات والتّحوّلات الّتي طرأت عليه من هنا وهناك، وبرغم التّضارُب الموجود بين هذهِ الألوان أيضًا فيما يخصُّ المشارب الّتي نَهَلَت منها أو تلك الّتي ستنهل منها، فإنَّ هذه التّحوّلات كان لها سبْق الفضل في انبعاث أشكال موسيقيّة جديدة مختلطَة من قبِيل الرّاي، في الوقت الّذي كانت فيه هذهِ الإيقاعات في طريقها إلى الزّوال والاندثار. ولقد شدّدَ إدغار موران على الأهمّية البالغة لهذه الامتزاجات الموسيقيّة ومنها الجاز بقوله:

" لقد كان الجاز في بادئ الأمر شكلًا موسيقيًّا هجينا من إفريقيا وأمريكا، وكان نتاجا فريدًا لأورليانز الجديدة، فانتشرَ حتّى عمَّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ... ثمّ أصبح موسيقى زنجيّة بيضاء، فأخذَ البيضُ يستمعون إليها ويرقصون على أنغامها ثمّ شرعوا يعزفونها. وأخذ الجازُ بمختلف الأشكال في الانتشار في سائر أنحاء العالم، وأمّا الأسلوب العتيق أورليانز الجديد، الّذي بدا كأنّما تُركَ جانبا، فقد ابْتُعثَ من جديد في أقباء سان جيرمان دي بري في باريس، ثمّ عاد إلى الولايات المتّحدة وعاد إلى الاستقرار في أورليانز الجديدة. ثمّ امتزج بالريتم أند بلوز، فكانَ ظهورُ الرّوك في المجال الأبيض في الولايات المتّحدة الأمريكيّة "[1].

وبيْنما يستطيعُ النّاس العيْش وِفقًا لهويّاتهم وتقاليدهم الثّقافيّة الخاصّة بهم مثلمَا نفهم من رأي إدغار موران، فإنّهُ لأوّل مرّة مع أنصار التّعدّديّة الثّقافيّة اللّيبراليّة القائمة على الإيمان القويّ بالمبادئ والقيم الدّيمقراطيّة أضحى موضوع التّعامل مع التّراث التّقليديّ يمثّل مُشكلًا حقيقيًّا وخطرًا يهدِّد فقدان الهويّة والأصالة والفرديّة، وإنّ هذا التّصوُّر لا يأتي إذًا إلّا من " طريق غرس الخوف الرُّهابي من الآخرين" [2] كما يعتقد ويل كيمليكا W. Kymlicka، بالأحرى من طريق تفسير ذاتي مُحافظ للتّعدديّة الثّقافيّة وهذا راجع بالأساس إلى أولئك الّذين يرفضون التّنوُّع والاختلاط من دُعاة الانغلاق والدّيانات الدّوغمائيّة، أيْ" الصّفوة المحافظة داخل الجماعة هي الّتي تدّعي أنَّ لها سلطة التّفرقة بين ما هُو تقليديّ وما هُو أصيل، وهي بذلك تكبُت وتقمع مطالب التّغيير الّتي ينادي بها المصلحون داخل الجماعة"[3]، بحجّة حماية الثّوابت التّاريخيّة للأمّة القابلة للتّغيير، والنّظر إليها بوصفها مُقدّسًا يندرج ضمن فكرة الدّين والثّقافة. بالإضافة إلى اعتبارهِ واجبًا من واجبات الفرد اتِّجاهَ الثّقافة: " إنَّ التّفسير المحافظ للتّعدّديّة الثّقافيّة قد يُوصفُ بدقّةٍ أكثر، لا لكونهِ مانعًا للحقوق الثّقافيّة للشّعب، بل كفارض للواجبات الثّقافيّة – أيْ واجب المرء للمحافظة على ثقافته، سواء أكانَ المرء يرغب في ذلك أم لا – ومن ثَمَّ كتضييق وليس توسيعا لحرية الفرد "[4].

---

(3) إدغار موران، هل نسيرُ إلى الهاوية؟، إفريقيا الشّرق، المغرب، ط1، 2012، ص 103.

(4) المصدر نفسه، ص 98.

(1) إدغار موران، هل نسيرُ إلى الهاوية؟، مصدر سابق، ص. ص 100، 101.

(2) ويل كيمليكا، أويسا التّعدديّة الثّقافيّة" سبر السّياسات الدّوليّة الجديدة في التّنوُّع "، ج1، المجلس الأعلى الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 2011، ص 128.

(3) المرجع نفسه، ص 128.

(4) المرجع نفسه، ص .ص 128، 129.

يمكنُ أنْ نقول، أنّهُ مع الانفتاح على الثّقافات المقصيَّة والمهمّشة والعتيقة،" ومثالُها ثقافة الإسكيمو، فينبغي أنْ نعرف كيف نجعلها تُفيد من امتيازات حضارتنا، من صحة وتقنيّة ورفاه، لكن ينبغي أنْ نعرف كيف نُساعدها على صَوْن أسرار طبِّها وشامانيَّتها وخبرتها في الصّيد ومعارفها في الطّبيعة "[5]، صرْنا نشهد أنَّ الشّعوب نفسها هي من باتَ يدافع عن بعضها، كما لاحظنا في التّراث الثّقافي الموسيقي والّذي أصبح بدوهِ كما أكَّد على ذلك موران، عامل إبداع حقيقيّ برفض تلك الحواجز الّتي تُعيق الإبداع والابتكار والتّنوُع والاختلاف والاختلاط والاندماج والتّعدّد والفهم والتّواصل المتبادل في عصر الكوكبة.

5. خاتمة:

بيْنما حاولنا في بحثنا هذا أنْ نقف ولو بشكلٍ مُوجَز على أهمّ مفاصل أخلاق الفهم كما جادلَت عنها فلسفة إدغار موران، فإنَّنا يمكنُ أنْ نُشير فيما يأتي إلى السُّؤال عن أهمّ ما يمكن أنْ نستفيدَهُ من هذهِ الفلسفة في بُعدَيْها الأخلاقي والاجتماعي، ولنذكُر ذلك في جملة هذهِ النِّقاط:

- ✓ الفهم في جزءٍ من معناه يتشكَّل من الاعتراف، وهذا الاعترافُ بدوْرِهِ يطرَحُ نفسَهُ علينا بوَجهيْن، وهنا يبدُو من اللّازم التَّفرقَة بيْنَ الإثْنيْن، ولبَسط هذهِ الفكرة فإنَّهُ من شأن الطَّريقة التَّوسيعيَّة أنْ تُفيدنا بهذا الصَّدد، فنقول:

إنَّ الأوَّل، اعتراف فردي يُسايِرُ وُجودنا ويُصاحبُهُ، ويسير باتِّجاه فهمي للآخر، من فرد إلى فرد بمُراعاة مشاعرهِ دون تحقيرها وازدرائها. ومنْ أجل توظيفٍ أفضل لعبارة أكسل هونيث، هذهِ العبارة الأكثر شيُوعًا واستخدامًا في قاموس المثقَّفين المهتمّين بشكلٍ عامّ بالبحث في مجال فلسفة الاعتراف، يمكنُ القول: أعترفُ بهِ بجعلهِ"مرئيًّا " بالنِّسبة لذاتي، وهذا ما يمنحُني ويمنحهُ التَّقدير والاحترام كما بَيَّنتهُ مناقشة إدغار موران لِقوْلة الفهم في بعضٍ من جوانبها. فنحنُ كذواتٍ إنسانيَّة نسعى إلى خلق وبلورة هويّة مُتكاملة ونوعيَّة في كافَّة جوانبها الشَّخصيَّة، بحاجةٍ دائمة إلى الاعتراف بوُجودنا من طرف الآخرين، ما يعني أنَّ بناء الهويَّات الفرديَّة وحتَّى الجماعيَّة خاصَّةً من ناحية البناء السَّيكولوجيّ تتشكَّل بصفةٍ رئيسيَّة إمَّا بالاعتراف أوِ اللّا اعتراف.

أمَّا الثَّاني، اعتراف اجتماعي وهُو الموقف الأكثرُ حداثةً وأصالة في قلب النِّقاشات المعاصرة، وهُوَ حصيلة وجزء لا يتجزَّأ من الاجتهاد الفكري الَّذي قدَّمهُ كلّ من تشارلز تايلور ونانسي فريزر وجيمس تولي وكميلكا وماريون يُونغ... كلٌّ بطريقتهِ، وعلى العموم فإنَّ أغلب تلك النِّقاشات الَّتي خاضها هؤلاء تُجْمِعُ حول تمكينٍ حقيقيّ وفعليّ لحضور الأفراد باعتبارهم أقلِّيَّات ومجموعات ثقافيَّة مُهيْمَنْ عليها في المجتمع من طرف الأغلبيَّة المهيْمِنَة: كفئة المثليِّين والجُندُر والسُّود، والمهاجرين، والتِّيارات النِّسويَّة النَّاشئة في العالم، ...

وإنَّ هذهِ الجماعات سواءَ كانت مُهيْمِنَة أو مُهَيْمَنْ عليها فإنَّ الفرد فيها يُعرِّف نفسَهُ حسبَ ما جرى على لسان كلود دوبار من طريق مُماثلة تطابُقيَّة رئيسيَّة" بملامح جسديَّة أو لغويَّة، بعلامات هويَّاتيَّة ثقافيَّة(موصومة أو قابلة للوصم)، وإمَّا أنْ يُعرِّفَ نفسهُ(أو يجري تعريفهُ) بدايةً بدوْرِهِ المهني، بوضعهِ الاجتماعيّ: يُماثَلُ بنمط النَّشاط الَّذي يقومُ به، ب" دورٍ مُهيْكَل وروتينيْ ومعياري " يلتصقُ بشخصٍ "[1]. ولا تكون هذهِ المماثلة حقيقيَّة داخل الجماعة إلَّا بشروعها في منحِ الفرد اعترافًا.

غيرَ أنَّ فكرة المماثَلَة عند دوبار بالنِّسبة لوُجود هذهِ المجموعات الَّتي تُشكِّل أقلِّيات دخيلة، هؤلاء الَّذين يتضاءل حظُّهُم في تحقيق الانتماء وممارسة مُعتقداتهم ذات الصِّلة بما هُوَ تقليديّ، أو لكوْنها تتضارب مع مصالح طبقات أخرى، في ظلّ سيادة أشكال الرَّفض والقمع والمعاداة

(5) إدغار موران، هل نسيرُ إلى الهاوية؟، مصدر سابق، ص 104.

(1) كلود دوبار، أزمة الهويّات" تفسير وتحوُّل "، المكتبة الشّرقيّة، بيروت، ط1، 2008، ص 304.

وهي في مُعظمها أشكال تُعيق بالدَّرجة الأولى كلّ مُبادرة نحوَ الفهم والتَّوافُق، فإنَّها في الواقع تُثير بعض المشاكل ذات الارتباط الوثيق بتهديد أمن المجتمع وسلامتِه، بحجَّة أنَّها ليست من المجموعة الأصيلة أو الأصلانيَّة كما يقول بذلك جيمس تولي. وحتَّى نتمكَّن من فهم هذهِ الظَّاهرة، يكفينا على سبيل المثال لا الحصر أنْ نتتبَّع ثورة الزُّنوج(ثورة العبيد السُّود) في التَّاريخ العربي الإسلامي أثناء فترة حُكم بنُو العبَّاس سنة 255/ 869، باعتبارهم هُم أيضًا يُشكِّلون أقلِّيَّة في مُجتمع تُطالِب بالاعتراف.

وإذا ما أردنا البحث عن طُرُق أكثر نجاعة تقود إلى إدماج مُباشر لِمثل هذهِ الفئات في المجتمع، فإنَّ ذلك لا يكون سوى بالاعتراف الرَّسمي بهم من طرف الدَولة، بتجسيد مبادئ العدالة والمساواة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة الَّتي تطالب بها هذهِ المجموعات الثَّقافيَّة، إضافة إلى المطالبة باحترام حقوق هؤلاء الأفراد في الجماعة الواحدة، خياراتهم، حرِّياتهم، وخصوصيَّاتهم الثَّقافيَّة بشكلٍ أساسيّ، مع مُشاركتهم في الحياة العامّة لتأكيد المصالح والمطامح العُليا للمجموعة الثَّقافيَّة، ومع ذلك فإنَّهُ مع كلّ خطوة ترمي إلى جعل الدَّولة مُحايِدة ثقافيًّا، لا تزال هذهِ الأقلِّيات كما كانت عبر تاريخها الطَّويل حتَّى مع نُشُوء مفهوم الحرِّية اللِّيبراليَّة الحديث مُهدَّدة بالإقصاء والتَّهميش والإنكار.

✓ من فهم الذّات إلى فهم الآخر إلى فهم الثّقافات لدى إدغار موران يُشكّلُ تحدّيًا عظيمًا وصعبًا بالنّسبة لعالم العلاقات الإنسانيّة الهشّة، بما يحملُ في ذاتهِ من أحقادٍ وشُرور. ولَسنَا في كلِّ ما قُلنَا نُعيبُ أنفُسنا، وبالطّبع ذلك هُو الجُزءُ الحاضر في العالم من إنسانيَتنا العوجاء. ولكنْ أيُّ تعبٍ يهونُ لأنّهُ زائلٌ لا محالة في سبيل تحقيق أسمى هدفٍ في الوُجود، في إعلان مجيء عالمٍ خالٍ من الصّراعات والمعاناة، في الحُلم بنهايةٍ سعيدة، في عيْشِ الحاضر الآن كما لو أنَّ المستقبل قد جاءَ بالفعل كما تُبيِّنُ عبارةُ باومان، بتوحيدِ الجهود، ورسمِ الاستراتيجيّات، ووضعها في الفعل باستيثارِ الإرادة الخاملة فينا، بإظهار الجانب الجميل من إنسانيَتنا أيضًا. ولكلِّ واحدٍ منَّا الحقّ في انتظارِ هذا العالم لعلَّ وعسى نُحقّقُ سلامًا داخليًّا، ولو أنَّ مدّةُ انتظارهِ ستكونُ طويلةً جدًّا. وإنَّ المستقبلَ المتخيّل يبعثُ على التّفاؤل والأملِ والفرح، ويجعلُ للعالمِ بما فيهِ معنًى على الرّغم من أنَّنا لا نكادُ نلفى بعدُ أحدًا يُدركُ هذا الأمر!. كما يقولُ إدغار موران.

6. قائمة المراجع:

المراجع بالعربيّة:

1- أحمد عبد الحليم عطيّة، العيش سويًّا" قراءات في فكر فتحي التّريكي "، دار الثّقافة العربيّة، القاهرة، ط1، 2008.
2- إدغار موران، المنهج" معرفة المعرفة، أنثروبولوجيا المعرفة "، ج3، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2012.
3- إدغار موران، النّهج" إنسانيّة الإنسان، الهويّة البشريّة "، ج1، هيئة أبو ظبي للثّقافة والتّراث(كلمة)، أبو ظبي، ط1، 2009.
4- إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل "، دار توبقال، المغرب، ط1، 2002.
5- إدغار موران، تعليم الحياة" بيان لتغيير التّربية"، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2016.
6- إدغار موران، هل نسيرُ إلى الهاوية؟، إفريقيا الشّرق، المغرب، ط1، 2012.
7- إريك فروم، كينونة الإنسان، دار الحوار، اللّاذقيّة، سوريا، ط1، 2013.
8- أولريش بك، هذا العالم الجديد" رؤية مجتمع المواطنة العالميّة "، منشورات الجمل، كولونيا، ط1، 2001.
9- أومبرتوإيكو، حكايات عن إساءة الفهم، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، القاهرة، ط1، 2006.
10- إيمانويل ليفيناس، الزّمان والآخر، معابر للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط1، 2014.

11- جان بول سارتر، تعالي الأنا موجود، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 2005.
12- جوديث بتلر، الذّات تصفُ ذاتها، دار التّنوير، بيروت، ط1، 2014.
13- جيروم بندي، القيم إلى أين، المجمّع التّونسي للعلوم والآداب والفنون" بيت الحكمة "، قرطاج، ط1، 2005.
14- رونيه غينون، أزمة العالم الحديث، المركز الإسلامي للدّراسات الإستراتيجيّة، العتبة العبّاسيّة المقدّسة، ط1، 2016.
15- زيغمونت باومان، الثّقافة السّائلة، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، بيروت، ط1، 2018.
16- ستيفان فيَال، الكينونة والشّاشة"كيف يُغيِّر الرّقمي الإدراك "، هيئة البحرين للثّقافة والآثار، المنامة، ط1، 2018.
17- كلود دوبار، أزمة الهويّات" تفسير وتحوُّل "، المكتبة الشّرقيّة، بيروت، ط1، 2008.
18- ليزا بورتولُوتي، الفلسفة والسّعادة، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، ط1، 2013.
19- محمّد بالرّاشد، تعليم التّفاهُم عند إدغار موران" قراءة في المعرفة السّادسة الضّروريّة لتربية المستقبل "، مجلة تفاهُم، العدد 42، 2013.
20- مويس بلانشو، الفاجعة، دار توبقال للنّشر، المغرب، ط1، 2018.
21- هيلين كيلر، قصّة حياتي العجيبة، تر. محمّد وهدان، د. د. ن، د. م.ن، د. س. ن،
22- ويل كيمليكا، أويسا التّعدديّة الثّقافيّة" سبر السّياسات الدّوليّة الجديدة في التّنوُّع "، ج1، المجلس الأعلى الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 2011.
23- يُورغ- ديتر كوغَل، أدباء أمام المحاكم" الأدب الممنوع عبر أربعة قرون "، مؤسّسة شرق غرب- ديوان المسار للنّشر، الإمارات العربيّة المتّحدة، ط1، 2009.

المراجع بالأجنبيّة:

1- Herbert Marcuse et autre , A Critique of Pure Tolerance, Beacon Press, Boston, 1965.
2- Martin Buber, I and Thou, translation by Walter Kaufman, Publisher Charles scribner's sons, 1970.
3- Maxime Chastaing, Les Autres comme soi- même(les faux problème de la connaissance d'autrui), Édition critique par Jacques Chastaing et Frédéric Fruteau de Laclos, Classiques Garnier, 2016.
4- Michael Carrithers et autres, The category of the person(Anthropology, philosophy, history), Cambridge University press, Frist published, 1985.
5- Serghei Cartasev, One World (Teaching Tolerance and Participation), By international Debate Education Association, New York, 2006.